



مجموعة مزمز البريدية

- يا أبا صالح! قم فحدثنا عن توبية الله عليك!

ويقوم الشاب فيسرد حديثاً مفصلاً مكرراً عن زلات وهفوات وشهوات.. وقد بات يستره ربه وأصبح يكشف ستر الله عليه! وربما بالغ وحكي ما لم يكن؛ تشبعاً وتكتيراً وتكريراً للفرق بين ما كان وما صار! وهو يحكى أنه قضى شطراً من شبابه في غفلة ورفقة سوء، وتجراً على الموبقات العظام، وهو لا يزال في أول طريق الهدية، ولا يحسن أن يضرب المثل للناس بنفسه ولا أن ينبش ماضيه! حكى الله خطيئة الأبوين؛ ليدرك الأبناء أن الخطأ كامن في طبيعتهم وتكوينهم، وأن الخروج منه ممكן وليس الذنب حتماً لازجاً في رقاب العباد.

التحذير الرباني من الذنوب سابق: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ} (35:البقرة).

النهي عن القريان سدٌ للذرية واحتياطٌ من الواقع، ولعل من اقترب من شجرة المعصية يجد من جاذبيتها وإغرائها أو طيب رائحتها ما يحفزه على المعاشرة!

ومع التحذير بيان جلي للعقوبة المترتبة على الفعل بأن يلحقوا بالظالمين.. مما يدل على وجود ظالمين قبلهم.. أفسدوا في الأرض، وسفروا الدم الحرام، فعوقبوا بالطرد والإبعاد.

تأكيد مبكر على بشاعة الظلم وشناعته، وأوله ظلم النفس، وظلم أخيك الإنسان ظلم لنفسك ولبني جنسك.

وبعد المقارفة والواقع عتاب يسير، ثم صفحٌ وفتح لأبواب من الإنابة تسع ما بين المشرق والمغرب، وتنذير بأن لحظة الخطيئة عابرة وتزول: {إِنَّمَا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا قَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} (23:الحديد).

الخطيئة تذكيرٌ قلبي بمعنى الغفور الرحيم.

تَوَضَّأَ الْقَلْبُ مِنْ ظَنِّي بِأَنَّكَ غَفَّ... مَارَ وَصَلَّى وَكَانَتْ قِبْلَتِي الْأَمْلُ

دَعْ الْهَوَى لِذُوِّيهِ يَهْلِكُوا شَغْفًا ... أَوْ فَاقْتُلُ النَّفْسَ فِيهِ مِثْلَ مَنْ قَتَلُوا!

ما الحامل على الذنب؟

- حب الخلود وطول الأمل.

- حب التسلط والملك: {أَن تَكُونَا مَلَكِين} (20:الأعراف)؛ على القراءة بكسر اللام، مثنى: مَلَك، أي: صاحب مملكة.

- التخلص من الطبيعة البشرية، وتغيير خلق الله بالانتقال إلى عالم الملائكة، على القراءة بفتح اللام.

قد يكون الشر طريقاً إلى الخير، وربما استخرج الله من العبد بالذنب خيراً لم يكن ليحدث من دونه.

من لديه طهورية زائدة قد لا يحسن فهم الناس وتقدير دوافعهم وطبائعهم، أو تحول طهوريته إلى كبرٍ وعجبٍ وتعاظم..

ويعتقد أنه يمثل الأنموذج، ومن سواه يضرب في التّيّه البعيد.

من الاعتدال أن تعامل مع الخطيئة بمقتضى أنها يمكن أن تصدر منك!

وأيكم كان طاهراً فليرمها بحجر!

(لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِعِنْدِ ذِكْرِ اللَّهِ فَتَقْسُوْ قُلُوبُكُمْ فَإِنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِيَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَانَكُمْ أَرَيَابٌ وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَانَكُمْ عَبِيدٌ فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلٌ وَمَعْفَىٰ فَارْحَمُوهُمْ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاحْمَدُوهُ اللَّهُ عَلَى الْعَافِيَةِ) (رواه مالك في الموطأ من كلام عيسى عليه السلام).

الخوارج القوامون بالليل، الصوامون بالنهار، المتبعون المتخعون.. ضلوا عن استيعاب ضرورات الناس وطبعاهم، فوقعوا فيما هو شر مما نفروا منه وأبغضوه..

وصارت فكرتهم الخارجية أقرب للشيطانية منها للملائكة!

خطيئة آدم وحواء مكشوفة ظاهرة، متلوة في القرآن، مسجلة بلا نكران.

نوح سأل ربه بشأن ولده فخوطب: {فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (46:هود)، فقال: {رَبِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (47:هود).

إبراهيم استخدم التورية في خطابه وقال: {إِنِّي سَقِيمٌ} (89:الصفات)، وقال: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} (63:الأبياء)، فاعتذر عن الشفاعة يوم الدين..

وداود فعل ما فعل وظن أنه فتن.. {فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَ رَاكِعاً وَأَنَابَ} (24:ص).

ويونس خرج مغاضباً وظن أن بمقدوره ترك قومه.. {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} (87:الأبياء).

ويوسف هم بها {لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} (24:يوسف)، وقال: {وَمَا أَبْرَى نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (53:يوسف).

وموسى قتل القبطي من غير تعمد، وقال: {رَبِّي أَتَيَ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ} (16:القصص)، وكان ذلك قبل النبوة، وبعد النبوة قال: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} (14:الشعراء).

كان واضحاً مع نفسه، واضعاً للأشياء في موضعها، مسمياً للأشياء بسمياتها في خطابه مع ربه والتماس عفوه. وفي القرآن: {عَبَسَ وَتَوَلََّ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} (1,2:عبس).

وفيه: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} (37:الأحزاب).

وفيه: {وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ} (105-107:النساء).

فكان -عليه السلام- يتلو ما أنزل عليه بخشوع وانكسار، ويلقنه أصحابه، ويملئه على كتاب الوحي؛ ليضعوه موضعه في

المصحف، ويؤم الناس به في الصلاة!

برهان قاطع على ربانية الوحي وتواضع الأنبياء، ووضوح توباتهم، وغموض ذنوبهم حتى تحير المفسرون في تسميتها، وعددها غالباً من فعل ما هو خلاف الأولى.

ومع هذا أعلنها القرآن؛ مبرزاً صدق ندمهم، وعمق إخبارتهم وانكسارهم، ولم يكن في حديثهم اتساع في تصوير الذنب بل استطراد في تنوع التوبات وصيغ الاستغفار.

الإسلام اليوم

المصادر: